رؤية نفسية في صور تعذيب السجناء العراقيين في (أبو غريب)

سايكوباثيا الدولة العظمى أم غسل مبرمج لأدمغة العراقيين؟!

فارس كمال نظمي
جامعة بغداد

عندما يكشف المتهم بنفسه عن أدلة مؤكدة (صور حقيقية لا تزوير فيها) تدينه من فمه، وتوثق انتهاكاته للكرامة البشرية، ويسمح بنشرها دون تردد في كل وسائل الإعلام، فتلك حالة غير مألوفة تستدعي التريث وعدم التسرع في إطلاق أحكام تقليدية لتفسير هذا السلوك الغرائبي. لماذا يكشف السياسي الأمريكي عن قبحه بهذا الشكل المباشر، بعد أن استمات في المرحلة السابقة ليصدق العالم (فضائله) في نشر الحرية الموعودة في بلاد الرافدين ؟ ولماذا تروج الإدارتان العسكرية والسياسية في أمريكا لوثائق دامغة تجعلها في مصاف البرابرة والراقصين على القبور؟!

احتمالات الإجابة متنوعة وعديدة، إلا أن ضغطها جميعاً في دائرة التحليل النفسي السياسي، يمكن أن يختزلها إلى مرجعين أساسيين للتفسير. فأما أن كشف الصور بهذه النزعة الفضائحية هو نتاج موضوعي ولكن لا أخلاقي لمرحلة من مراحل التطور التي تمر بها دولة عظمى لها فضائلها ورذائلها على حد سواء، أي أننا أمام لحظة ضعف ذاتية تستدعي الشعور بالذنب لدى أمة تصدّر اضطراباتها النفسية إلى شعوب مبتلاة أصلاً كانت تنتظر منها الإسناد والتعاطف والمشورة والاشفاء، وهذا هو التفسير ((النفسي التاريخي)) لهذا الحدث، و إما إننا أمام سيناريو مقصود ومخطط له بدقة، له عناصره الدرامية وتكنيكاته السيكولوجية، ومراحله وأهدافه السياسية والاقتصادية والحضارية على المديين القصير والبعيد، وهذا هو التوظيف النموذجي لـ ((نظرية المؤامرة)) في تفسير هذه المعطيات المحيرة، أي ما يمكن أن نطلق عليه بالتفسير ((النفسي التآمري)).

لنتناول هذين التفسيرين على التوالي، دون انحياز لأحدهما، فلعل الحقيقة هي مزيج من كليهما مضافاً إليها عناصر تفسيرية أخرى لا يتطرق إليها هذا التحليل. ولن نغور عميقاً في المغزى التفصيلي لأي من هذه الصور توقيراً للقيمة الإنسانية المسفوحة في عروقها، ولأن غايتنا هي تسليط مجهر نفسي من مسافة تأملية مناسبة لاستيعاب الصور جميعاً في تحليل واحد إجمالي.

سايكوباثيا المؤسسة العسكرية

توصف الشخصية السايكوباثية (sychopathic) أو المعتلة نفسياً) بأنها شخصية مضادة للمجتمع Antisocial، تتسم بافتقاد الشعور بما هو صواب وما هو خطأ، وبالعنف والقسوة والسادية والأنانية واللامبالاة تجاه حقوق الآخرين، وبعدم الشعور بالذنب وعدم التعلم من التجارب وعدم الاتعاظ من العقوبات وعدم الاكتراث إذا ما انكشفت أعمالها غير المشروعة، وبالاندفاع والتهور والتحلل من المسؤوليات، وبالتمركز الشديد حول الذات، وبالكذب المستمر، وبالميل للعيش في اللحظة الراهنة وإشباع الرغبات الفورية دون أدنى تأجيل. ومعظم السايكوباثيين يستطيعون أداء وظائفهم الاجتماعية، إذ ينجحون في إخفاء حالتهم فيصعب تشخيصهم وكشفهم إلا إذا تورطوا في سلسلة من السلوكيات الطائشة المفضوحة.

وعلى مستوى التشخيص النفسي يمكن للسايكوباثي أن يكون نكرة لا يعرفه إلا نفر قليل من الناس، ويمكن أن يكون زعيماً لدولة تتطلع الملايين لكلماته وقراراته. فتأريخ الإمبراطوريات والدول العظمى (فضلاً عن الدول الأقل تأثيراً ومكانة) يزخر بنماذج فريدة من سلوكيات سايكوباثية متأصلة ظهرت في شخصيات ملوكها آو رؤسائها أو قادتها العسكريين. ويعد الجنرالات الألمان النازيون أمثلة نموذجية لسايكوباثية المؤسسة العسكرية المعاصرة، فالجنرال (غورنغ) مثلاً الذي أدخل فكرة معسكرات الاعتقال وكان مسؤولاً عن الكثير من الفظائع البربرية تجاه شعوب أوربا إذ كان يأمر جنوده أن يطلقوا النار على ضحاياه أولاً ثم يستفسروا عن السبب، كان نفسه ذا علاقات اجتماعية هادئة ورقيقة، وكان يحب الخيول والزهور وله حديقة حيوان خاصة به. فأين جنرالات البنتاغون من كل ذلك ؟

إن التحليل السوسيولوجي للآلية التي تنمو بها المفاهيم الأخلاقية للمؤسسات الاجتماعية، يشير بوضوح إلى أن التطبيل الأخلاقي الذي تمارسه دولة معينة على مستوى أيديولوجيتها الرسمية كثيراً ما يرتبط بممارسات لا أخلاقية واسعة في مؤسسات تلك الدولة نتيجة أسباب بيروقراطية ونفعية ذات صلة بالهوة العميقة القائمة بين التركيبة الانفعالية للأفراد من جهة وبين ما يرفعونه من شعارات مثالية تنادي بالحرية والعدل من جهة أخرى. والمؤسسات الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية لا تقع بالتأكيد خارج هذه الرؤية. فالتطور التاريخي الهائل للرأسمالية الأمريكية، راكم لديها وعياً حقوقياً لفظياً بالغ السعة والشمولية على مستوى الإعلام ودور النشر والدعاية السياسية، ولكن دون أن يرافقه تراكم مماثل على مستوى الوعي الأخلاقي الصميمي للفرد الذي يدير تلك المؤسسات، بل بالعكس وجد السايكوباثيون أن إدارتهم الناجحة لرأس المال لا بد أن تمر بتبنيهم الشكلي والدعائي لقيم الحرية وحقوق الإنسان، مع احتفاظهم (بحقهم) الكامل بالضغط متى ما شاءوا على أزرار الصواريخ العابرة للقارات لتدكّ البنى التحتية لمجتمعات لم تتنفس بعد هواءَ خارج مناخ الاستعمار المباشر القديم، فضلاً عن ممارستهم (لحقهم) المباشر في تمريغ كرامة سجنائهم من أبناء تلك المجتمعات بتعريتهم والتقاط الصور (التذكارية) السادية معهم.

إذن، اصبح السياسي أو العسكري ذو الشخصية السايكوباثية جزءاً موضوعياً من تطور أمة وحضارة اسمها الولايات المتحدة. فالقسوة وعدم الشعور بالذنب وعدم الاكتراث بآلام الآخرين وعدم التعلم من التجارب، صارت جميعاً من بين الخصائص المهنية لتلك المؤسسة العسكرية التي ابتدأت نشاطاتها مع احتلال جمهوريات الموز والمطاط والقصدير في أمريكا اللاتينية قبل أكثر من قرن، وانتهت اليوم باحتلال جمهورية النفط الكبرى في الشرق الأوسط. أما الكشف العلني عن صور مأساوية تدين هذه المؤسسة العتيدة، وبواسطة أشخاص محسوبين عليها، فلا يمكن تفسيره - ضمن المنظور النفسي التاريخي - إلا بوصفه محاولة النقيض لينقض نقيضه، أي محاولة الوجه الحيوي (الأخلاقي) لهذه المؤسسة أن يتصدى لوجهها السايكوباثي المقيت، ضمن دورة التفاعل الجدلي بين الوقائع والتجريدات. وبذلك تصبح سادية السجان الأمريكي في أبي غريب خاصية مفهومة من خصائص الشخصية الرأسمالية التي تنظر إلى الإنسان - في التحليل النهائي - بوصفه سلعة أو موضوعاً للربح والتفريغ الانفعالي الأخرق، لا ذاتاً أو معنى يستحق التبجيل والارتقاء.

غسل مبرمج لأدمغة شعب

لنستهل مرجعنا التفسيري الثاني بتوضيح ما يسمى بـ((غسل الدماغ)) ، إذ انه ببساطة: أسلوب شديد الحدة من تلقين الأفكار، في ظل ظروف يجري خلالها تعريض الإنسان لأوضاع نفسية وبدنية مجهدة للغاية، ليتقبل تلك الأفكار - المغايرة لمنظومته القيمية - تحت وطأة الإنهاك بدلاً من قبولها عن طريق الإقناع الواعي في ظل ظروف اعتيادية. وقد حدد عالم الفزيولوجيا الروسي الشهير (ايفان بافلوف) ثلاثة أدوار يمر بها الكائن الحي عند تعرضه للشدة والضغط المصاحبين لتكنيك غسل الدماغ. ففي الدور الأول تتبلد حواس هذا الإنسان المجهد ويصبح غير مبالٍ بالمثيرات المسلطة عليه. وفي الدور الثاني، وبسبب ازدياد قسوة هذه المثيرات يحدث تناقض في استجاباته إذ يصبح ضعيف الاستجابة أمام الأحداث القوية وحاد الاستجابة أمام الأحداث الضعيفة. أما في الدور الثالث فتتبدل عادات ذلك الإنسان إلى نقائضها، فقد ينقلب حبه لفكرة أو موضوع أو إنسان ما إلى كره شديد، أو بالعكس.

إن الأسلوب المفاجيء والاستفزازي الذي عرضت به صور تعذيب السجناء العراقيين في شبكات الإعلام، يشير إلى أن عملية الغسل الجمعي المبرمج الذي تجريه المؤسسات المخابراتية والسياسية في واشنطن لأدمغة العراقيين، قد دخلت دورها الثاني حسب التقسيم البافلوفي. فخلال عام كامل من الاحتلال والاحتيال، تعرض المجتمع العراقي إلى ضغوط بدنية ونفسية لا مثيل لكثافتها الكمية والنوعية قياساً بمستوى التحمل الفزيولوجي والعصبي لدى البشر. فلعبة تغييب الأمن والاستقرار لمنع تبلور تيارات فكرية واجتماعية عقلانية ذات تأثير ملموس في تطوير المشروع السياسي العراقي من خلال تصنيع الإرهاب وافتعاله رغم أنف التطور الموضوعي للأحداث، ولعبة قطع الكهرباء عن المناطق السكنية والصناعية (وفق جداول عشوائية وعبثية واضحة المغزى للمختص النفساني) رغم مليارات الدولارات التي أهدرت لأصلاح شبكات الطاقة، ولعبة المباشرة ببيع القطاع العام وتصفيته رغم معاناة ملايين العاطلين عن العمل والباحثين عن سكن، ولعبة ضخ مئات الآلاف من السيارات المستوردة والمستهلكة في شوارع مدن العراق تعطيلاً للتدفق الطبيعي للحياة اليومية وإحباطاً للإنسان وهو يواجه مشهد مدنه الغارقة في الفوضى فينكفيء في بيته معظم الوقت رغم كل استعدادات الابتكار والتفتح الكامنة فيه، ولعبة الترويج اللفظي في الخطاب السياسي الأمريكي لمصطلحات التفرقة الدينية والطائفية والعرقية رغم كل مؤشرات التماسك المجتمعي العراقي، ولعبة اجتياح المدن الآمنة بالدبابات والطائرات بحجة البحث عن (أعداء الحرية) رغم كل الأعراف والمواثيق والمقدسات، إن كل هذه الألعاب - أو الضغوط - حققت إجهاداً نفسياً وإحباطاً معنوياً واضحاً في الشخصية العراقية، جعلها توغل أكثر في درب فتور العاطفة، والاكتئاب، والاغتراب عن عالمها، وعدم المبالاة إلى حد كبير بمسيرة التطور السياسي القادم في بلادها، مما يعني نجاح الدور الأول - الذي أشرنا إليه - من عملية غسل الدماغ الجمعية في تحقيق أهدافه، وان العراقيين أصبحوا على أعتاب الدور الثاني الذي يقتضي هو الآخر التحقق من مدى حصوله، فأطلق صانعو القرار بالوني ((العلم العراقي الجديد)) و((صور تعذيب السجناء العراقيين))، اختباراً لنوع المرحلة التي وصلت إليها عملية غسل الدماغ هذه. وللأسف، فقد اتضح أن قضية ثانوية نسبياً تتعلق بألوان ورموز علم قابل للمناقشة والبت في شانه وحتى استبداله في مرحلة قادمة، أثارت ردود أفعال قوية وحادة بشكل لا يتناسب مع أهمية القضية من فئات اجتماعية وسياسية متنوعة، فيما قضية أساسية وجوهرية تتعلق بالكرامة العراقية المهدورة في صور سجناء ممتهنين من سلطة احتلال تدعي لنفسها الحق في رسم مستقبل هذه البلاد: ((نعريكم، ونثلم شرفكم، ونشدكم بأسلاك الكهرباء، ونضع الأكياس في عقولكم، ونسخر منكم، ثم نقودكم إلى الفردوس!))، فشلت هذه القضية في إثارة الرأي العام العراقي بما يكفي لتعبئته وتوحيده على مستوى إنضاج الوعي بحقوقه الوطنية والإنسانية المهانة، وكأن هذه الصور تخص شعباً آخر لا شأن لنا بهمومه إلا في حدود التعاطف، فيما اكتفى بعض أعضاء مجلس الحكم بإصدار تصريحات دبلوماسية ومقننة تناشد سلطة التحالف بضرورة تطبيق القانون - المغيب أصلاً - لمعاقبة المذنبين. بمعنى أدق، إن المؤسسة القائمة على التخطيط لإجراء تبدلات جوهرية في اتجاهات الشخصية العراقية وثوابتها القيمية، أصبحت مقتنعة الآن أن الدور الثاني من عملية غسل دماغ هذا المجتمع أصبح قيد التحقق ما دام العراقيون صاروا ينفعلون بأحداث ثانوية محدودة الأهمية ويبدون عدم اكتراث نسبي بأحداث عميقة تمس كبرياءهم وهويتهم وأساس وجودهم الاجتماعي. وكل ذلك يعني من وجهة نظر السايكولوجيا السياسية أن الدور الثالث والأخير من مراحل غسل أدمغة العراقيين قادم في المحصلة النهائية، متضمناً إعادة تشكيل سلوكهم ومعتقداتهم وأنماط حياتهم بنسق يتلاءم مع السواقي التي يتدفق فيها الدولار الأمريكي صعوداً وهبوطاً من دماء الشعوب إلى الابتسامات السايكوباثية لجنرالات الحرية أمام كاميرات المحطات الفضائية.

ومع ذلك فأن الحتمية الاجتماعية والتاريخية تظل متضمنة لمقدار مهم من حرية الإرادة الفردية والجمعية. فكثيراً ما تنجح عمليات غسل الدماغ مرحلياً، لكنها تفشل في نتائجها النهائية، إذ يمكن للوعي الإنساني أن يسلك - شعورياً ولا شعورياً - طرقاً معقدة في التمويه والدفاع عن هويته المغموسة بفكرة الحق والانتماء للجذور. لكن هذه الطرق هي الأخرى ليست قدراً حتمياً مفروغاً منه، بل هي احتمالات عسيرة يتوجب على النخب التنويرية في أي مجتمع التفتيش عنها وسط ظلام الحروب والاحتلالات والظلم الاجتماعي. وللعراقيين اليوم نخبهم الصامتة التي يمكن أن يكون لها شأنها القادم في إعادة تأهيل شخصية عراقية تنبذ العنف والانفعالات المتسرعة والازدواج في السلوك، لا يؤثر فيها الإيحاء والأغراء والأحداث المصطنعة، يحركها الوعي الجمعي بحقوقها المشروعة التي طال تهميشها واستلابها.

تحقيق

العنوسة هاجس نفسي أم ظاهرة اجتماعية ؟!

نادية صفر البياتي

يقول (ميخائيل نعيمة): ((الرجل والمرأة جناحا طائر واحد هو البشرية وكفتا ميزان واحد هو النظام السرمدي. فما صفقت البشرية بجناح إلا صفق أخوه معه، ولا هوت كفة الرجل يوماً إلا هوت في الحال كفة المرأة إلى مستواه، أو ارتفعت كفة المرأة إلا ارتفعت كفة الرجل فوازنتها. فهما لحم واحد، ودم واحد، وعظم واحد، وروح واحد)).

إذن، فالحياة البشرية تشارك وتضامن. وواحدة من أهم صور التشارك هذه هي الزواج، بوصفه الأساس الأعمق لبناء الأسرة والمجتمع. فلا الرجل استطاع أن يسعد نفسه وينعم بالحياة وحيداً، ولا المرأة استطاعت أن تعيش وحدها بغير الرجل. فكان لهما أن يجتمعا ويقترنا ويندمجا، ففي هذا الاقتران استمرار الحياة. ولكن لكل ظاهرة استثناء، سواء كانت طبيعية أو اجتماعية. واستثناء مفهوم الزواج هو مفهوم العنوسة. ولأن لكل واقعة اجتماعية أسبابها، فللعنوسة أيضاً أسبابها الكثيرة. وما نراه من تردد أو إقبال على الزواج له في نظر البعض مبرراته، منها إن لكل إنسان الحق في تقرير مصيره واختيار الدور الذي يناسب شخصيته في المجتمع، فضلاً عن تعرضه لمؤثرات خارجية من شأنها أن تحدد سلوكه وأفكاره واستجاباته الوجدانية مما يدفعه لاتخاذ قراره الجريء ((فإما البقاء حراً دون قيد اسري، أو الزواج)).

ولكن ماذا لو اطلعنا على النتائج التي يمكن أن تجنيها امرأة اتخذت قراراً بالبقاء حرة دون قيد أسري !؟ ترى هل كان قرارها هذا بمحض إرادتها أم رغماً عنها ؟ للإجابة عن هذه التساؤلات، ولأجل التعرف على أسباب العنوسة لدى النساء في مجتمعنا (فعنوسة الرجال ظاهرة مماثلة تستحق تحقيقاً منفصلاً عنها لاحقاً)، ارتأينا أن نلتقي بالعديدات ممن تقدم بهن السن دون زواج لنستطلع آرائهن بهذه الظاهرة.

النظام السابق هو السبب

*الآنسة (ل.أ) /موظفة،مواليد / تتساءل كيف كان يمكننا أن نحظى بفرصة زواج مناسبة وقد طحنت الحروب وأساليب القمع خلال المرحلة السابقة أعداداً كبيرة من الشباب، فضلاً عن الذين فضلوا الهجرة إلى الخارج تحت تلك الظروف القاهرة ؟!

*أما الآنسة (ك.م) / موظفة،مواليد/ فتضيف قائلة: شاءت الظروف أن يتقدم الي العديد من الشباب كان أغلبهم من الضباط، ولكنني لم أكن مناسبة لهم من وجهة نظر النظام السابق لأنني (تبعية إيرانية) ولذلك كان محظوراً علي أن اقترن بهم.

*وتعبر الآنسة (ج.م) / حاصلة على بكالوريوس آداب / عن استيائها أيضاً إذ تقول: لقد تسبب النظام السابق في حرماني من خطيبي الذي استشهد في الحرب العراقية الإيرانية. وعلى أثر ذلك لم استطع أن أفكر في غيره، ولذا أنا باقية إلى الآن دون زواج.

أسباب اقتصادية

*وضمن رأي واسع الانتشار في مجتمعنا، تقول الآنسة (ن.ج) / موظفة،مواليد /: إن الظروف الاقتصادية الصعبة التي مرت علينا خلال العقدين الماضيين دفعت بالعديد من الشباب للعزوف عن الزواج بسبب شعورهم بعدم القدرة على تحمل تكاليف الزواج ومتطلبات ديمومته.

*أما الآنسة (ل.ج) / مدرّسة،مواليد/ فتعبر عن وجه آخر من أوجه العامل الاقتصادي، بقولها: أنا مكتفية جداً من الناحية المادية، لذا أشعر بأن جميع من تقدم لي من الرجال كان طامعاً في مالي ليس إلا..، إذ أن إمكاناتهم المادية كانت محدودة ودون مستواي.

ضغوط المجتمع

*الآنسة (ع.س) / طبيبة،مواليد/ تقول: أنا كأي امرأة عصرية فضلت أن يكون لي وحدي الحق في تقرير مصيري، ولم أكن أريد أن أخضع لضغوط المجتمع الذي يسيطر عليه الرجال، لذا كافحت من أجل صياغة حياتي الخاصة بالطريقة التي أريدها لشعوري بأن الزواج لن يرضي تطلعاتي ولن يحقق غاياتي.

*أما الآنسة (م.م) / موظفة مصرف،مواليد/ فتوضح حالتها: ما أن تقدمت قليلاً في العمر حتى بات كل من يتقدم لي أما أن يكون مطلقاً أو أرملاً ولديه أطفال ويريد مني أن أربيهم ...لذا فضلت أن أبقى كما أنا !

*وتحاول الآنسة (ب.ش) / خياطة،مواليد/ أن ترمي باللائمة على والدها، فتقول: والدي هو السبب لأنه كان يفكر بأنانية. فبعد وفاة والدتي أصر على إبقائي دون زواج كي أقوم على خدمته إذ لم يعد لديه أحد غيري.

*وتطرح الآنسة (ر.ع) / حاصلة على بكالوريوس اقتصاد،مواليد/ بعداً آخر لضغوط المجتمع، فتقول: مشكلتي تكمن في غيرة الكثيرات ممن حولي. وأنا اعترف أنهن نجحن بالفعل في الحيلولة دون زواجي لأكثر من مرة فقط لأنني أتمتع بميزات يفتقرن إليها.

أسباب خاصة

*وللعنوسة أسباب خاصة أيضاً لها طابع التفرد أو الندرة، فلا يمكن تعميمها على المجتمع، منها ما حددته الآنسة (ن.ع) / حاصلة على بكالوريوس رياضيات،مواليد/ إذ تقول: كما تلاحظين، فأنا أعاني من إعاقة عضوية في إحدى قدماي، والتي طغت بدورها على جميع الميزات الأخرى التي أحملها. فما كان أحدهم يتقدم لخطبتي حتى أجد معارضة من أهله بسبب هذه الإعاقة ...وكل شيء قسمة ونصيب !

يتضح إذن أن العنوسة ظاهرة اجتماعية لها أسبابها المباشرة، كالأزمات الاقتصادية، والحروب، وضغوط المجتمع، وهجرة الشباب. كما يمكن أن تكون هاجساً نفسياً نابعاً من أسلوب تفكير المرأة العصرية التي لم تعد تتقبل الحياة كأمها وجدتها، بل أخذت تكافح من أجل تقرير مصيرها بوصفها كائناً بشرياً ينبغي أن يتمتع بجميع حقوقه، فضلاً عن محاولاتها الجادة في التحرر إلى حد ما من سلطان العاطفة في مقابل الميل نحو تغليب العقل والمنطق. وهنا أود أن أتساءل: ما مصير من فاتها القطار ؟

إذا كانت المرأة تحيا إبان طفولتها ومراهقتها وشبابها المبكر حياة آمنة سياجها الوالدان، بعيدة كل البعد عن كل ما من شأنه أن يضع حريتها موضع التساؤل، فسرعان ما سيتمزق من حولها ذلك الدرع الواقي الذي كان يحميها، فتجد نفسها وحيدة وتشعر بأن الأرض تحت قدميها لم تعد ثابتة كما كانت، وتنظر إلى ما يحيط بها فاذا بالكل يتطاير ويبتعد، فالوالدان رحلا عن الحياة، والأخت الكبيرة لا تستطيع أن تستضيفها في بيتها، والأخ لا يتحمل مسؤوليتها، ...إذن أين ستذهب؟!

الحرمان العراقي رؤية وأرقام

علي كاظم الشمري/جامعة واسط

يعد الحرمان الاجتماعي (أي الافتقاد للمتطلبات الأساسية للحياة الكريمة)، من بين أولى المشكلات التي تواجهها المجتمعات في العالم، وبالخصوص منها شعوب الدول النامية. وبحسب آخر تقديرات الهيئات الدولية المهتمة بهذا الشان ومنها (منظمة الصحة العالمية)، فان هناك نسبة تقدر من ربع إلى ثلث سكان العالم تعاني تلك المشكلة، تتركز (٪) منها في البلدان العربية والأفريقية.

ويرى المختصون أن تلك الظاهرة هي الأساس السببي في مشكلات نفسية واجتماعية عديدة، منها: الاكتئاب، وإيذاء الذات، وكره الذات، والخوف من المشاركة في الحياة العامة،والقلق من المستقبل، والميل للانصياع والخضوع، والانغلاق على الذات، والاغتراب عن المحيط، والنظرة السلبية للمجتمع، وغياب الأهداف، والرهاب (الفوبيا) الاجتماعي، وضعف الأنا تجاه الضغوط، والإحساس بالإحباط واليأس المزمن، فضلا عما يترتب على ذلك من خسائر بشرية واقتصادية ناجمة عن إقصاء الفرد وتعطيل دوره في الاشتراك في الفعاليات والأنشطة الحياتية المختلفة لمجتمعه.

وفي مجتمعنا العراقي نلحظ ظهوراً بارزاً لتلك المشكلة، إذ تشاهد صورها في ميادين مختلفة من الشارع العراقي، كانتشار مجموعات من أطفال الشوارع، يزاولون أعمالاً حرة لا تتلاءم وأعمارهم، مثل الباعة المتجولين في محطات نقل المسافرين، وعند مفترقات الطرق، وعلى الأرصفة، مما يجعلهم عرضة للانحرافات السلوكية والاجتماعية التي قد تترتب على وجودهم في الشارع على الدوام بسبب اختلاطهم بشرائح مختلفة من المجتمع وهم في أعمار لا يتمتعون معها بدرجة كافية من النضج النفسي والفكري، بالإضافة إلى تدني مستوياتهم التعليمية كون أن النسبة العظمى منهم هم من تاركي الدراسة أو غير المسجلين فيها أصلاً بسبب ظروف المعيشة القاهرة. وكثيراً ما تترافق صورة الحرمان هذه مع حالة اليتم لدى نسبة عالية منهم مما يعني ذلك غياب المتابعة والتوجيه التربويين لهم. وكل ذلك يعد تبعات لسياسة اضطهاد وحرمان متنوع الأوجه: سياسي، واقتصادي، وفكري، وديني، وقومي، وتعليمي، وثقافي، و تربوي، مورست على المجتمع العراقي من قبل نظام لا عقلاني حكمه لثلاثة عقود ونيف أسهمت في إيصاله إلى المقدمة على لائحة المجتمعات المحرومة اجتماعيا في العالم، إذ تشير عدد من المنظمات الإنسانية التي عملت في العراق بعد سقوط النظام، ومنها منظمة (اليونيسيف)، ومنظمة (الغذاء والزراعة) التابعتين للأمم المتحدة، بان هناك نقصا حادا في قطاعات الحياة الأساسية، وخصوصا قطاع التربية والتعليم بنسبة (٪). كما أشارت إلى وجود الفقر بنسبة (٪) بين أوساط المجتمع العراقي وفقا لثلاثة أنماط : النمط الأول نسبتهم (٪) تقريبا، يتوفر لديهم المأكل والملبس بدرجة (وسط) ولديهم مكان سكن مُلك بمساحة وبناء بسيط، من دون خدمات مثل الماء والكهرباء والمجاري ووسائل اتصال، أو توفرها بمستوى رديء. النمط الثاني يؤلف (٪) أيضا بمسكن أيجار، وبملبس ومأكل (ضعيف)، من دون توفر خدمات مثل أجهزة اتصال، وعدم قدرة على تحقيق الخدمة الصحية الخاصة (مراجعة عيادة الطبيب الخاص والصيدليات الخاصة)، بل مراجعة العيادات الشعبية فقط. أما النمط الثالث فيؤلف أيضاً (٪) تقريبا، وهم من النمط المصنف (ضعيف جداً)، فالأفراد هنا دون مأوى ويفتقرون لأبسط متطلبات الحياة، ويسكنون ضواحي المدن في بيوت من (التنك)، ومنها (حي طارق) في مدينة الصدر ببغداد على سبيل المثال لا الحصر، وهم يشتركون مع الأنماط السالفة في ضعف توفر الخدمات الأساسية الآنفة الذكر، يضاف لها العيش في مناطق ترتفع فيها نسبة التلوث تصل إلى حد أنها غير صالحة لعيش الكائن الحي من إنسان وحيوان. ويؤكد الخبراء في تلك المنظمات أن الحرب الأخيرة أسهمت في زيادة تلك النسب نظرا لما رافقها من أضرار في البنى البشرية و الخدمية، كما أكدوا في تقاريرهم شيوع أمراض بدنية خطيرة بين أفراد هذه المجموعات، مثل فقر الدم الحاد، والتهابات المعدة والأمعاء والقولون والمجاري البولية، والتهابات السحايا، و التهابات الكبد الفايروسية، والتدرن، والسرطانات بأنواعها. كما وثقوا ازدياد الاضطرابات النفسية والاجتماعية بينهم، مثل: مظاهر متنوعة للسلوك السايكوباثي (أي الانحرافات السلوكية)، وإيذاء الذات والغير، والاكتئاب لدى الإناث غالباً،والشذوذ الجنسي (لدى الجنسين)، وضعف النمو الخلقي، و ضعف الاهتمام بالمسؤوليات العائلية والاجتماعية، وغياب القدوة، والتفكك والعنف العائلي،و ضعف الصلة بالآخرين،و توقع السوء باستمرار، وإدمان العقاقير والخمور، ومظاهر الشخصية المعادية للمجتمع، والتخلي عن المسؤولية الوطنية والاجتماعية.

وتشير الإحصائيات إلى إن غالبية هذه الحالات المرضية (كماً ونوعاً) قد تركزت في النمط الثالث من أنماط الفقر.

إن مجتمعاً يسوده الجهل والفقر، وبيئته تسودها الفوضى والتلوث، والافتقار لمستلزمات وخدمات الحياة الرئيسة كالتعليم وخدمات الماء والمجاري والكهرباء ووسائل الاتصال، حتماً سيكون مجتمعا معطلا تشيع فيه العلل البدنية والنفسية والاجتماعية، وبالتالي لن يكون مؤديا لدوره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري ضمن دائرة المجتمع الإنساني الأكبر الذي هو فيه، ويشكل عائقا أمام أي حالة تطور أو نهوض قد تظهر فيه. وهكذا فأن أي خطة بناء أو أعمار تنتهج في العراق ينبغي أن تأخذ بالاعتبار الجانب النفسي الاجتماعي بدرجة لا تقل عن الجانب المادي والاقتصادي و الأمني والسياسي، ذلك إن أي مجتمع يراد إعادة أعمار ميادين الحياة فيه يجب أن يصار إلى إرساء قاعدة نفسية اجتماعية رصينة فيه، لأن الإنسان هو الأساس لكل بناء مادي يراد له أن يقام لينمو ويستقر على المدى البعيد.

ومن هنا تبرز الحاجة إلى الشروع ببرنامج وطني واسع لإجراء مسوحات نفسية شاملة للمشكلات المتصلة بمظاهر الحرمان الاجتماعي في العراق، وصولاً إلى تحديد الصيغة التي يرتبط بها العاملان السياسي والاقتصادي بالعاملين النفسي والاجتماعي، ضمن رؤية إصلاحية علمية يتم تبنيها من الجهات المخططة لمستقبل هذه البلاد، بعيداً عن الارتجال والنزوات والافتراضات غير الواقعية.